

رحلة لودوفيكو دي فارتيما إلى الجزيرة العربية

ترجمة: د. عبد الغني الحاجبي

قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب

والعلوم الإنسانية - جامعة صنعاء

لودوفيكو دي فارتيما

(لودوفيكو دي فارتيما) Ludovico de Varthema رحالة إيطالي ولد في بولونيا على الأرجح عام 1465م وتوفي عام 1517م وعمل لصالح البرتغال. يعد فارتيما من طلائع الرحالة الغربيين الذين زاروا مكة المكرمة حيث تخفي بملابس عربية وسمى نفسه بالحاج يونس المصري. رحلة فارتيما حول العالم هي الجناح البري - إن صح التعبير - لجهود البرتغال في اكتشاف الطرق المؤدية إلى ثروات الشرق عامة والهند خاصة، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الإسلامي. وتضاربت الآراء حول تاريخ رحلته ولكن من المرجح أن رحلته كانت بين عامي 1502م - 1508م.

تزامنت هذه الرحلة تقريباً مع رحلات (فاسكو دو جاما) الذي وصل إلى كلكتا - بعد الطواف حول أفريقيا - سنة 1498م، ووصلها في رحلة أخرى سنة 1502م. وبينما كان فارتيما يبحر من البندقية قاصداً مصر ثم الشام ثم عربية الصحراء والعربية السعيدة ومنها عبر الخليج العربي إلى بلاد فارس والهند والحبشة، كانت الأساطيل البرتغالية تقيم المحطات التجارية على السواحل الهندية وتقصف مدنها. وقدم فارتيما إلى مصر والشام والحجاز واليمن والخليج العربي وبلاد فارس باعتباره الحاج يونس المملوك المصري، أما في الهند فقد قدم نفسه باعتباره الحاج يونس العجمي (الفارسي) وذلك بمعاونة صديق له فارسي كان قد تعرف عليه في مكة المكرمة.

بدأ لودوفيكو دي فارتيما، أو يونس المصري كما سُمي نفسه، رحلته تقريباً في ديسمبر 1502م حينما غادر مدينة البندقية في إيطاليا متجهاً إلى الإسكندرية ومنها إلى بقاع كثيرة من قارة آسيا والجزء الشرقي من أفريقيا. بعد وصوله إلى الإسكندرية واصل فارتيما أو الحاج يونس المصري رحلته إلى مصر وسوريا وعربية الصحراء (شمال الجزيرة العربية) والعربية السعيدة وأثيوبيا ومضيق هرمز ومنه إلى بلاد فارس ثم الهند وسيلان (سيرلانكا حالياً) وبنجلادش وسمطرة وجزر الملوك في شرق اندونيسيا وجزيرة جاوه. أما عودته فأتخذ طريقه من الهند إلى الموزنبيق ثم إلى لشبونة في البرتغال، ثم روما في ديسمبر 1508م. وخلال رحلته إلى الجزيرة العربية زار فارتيما العديد من المدن من أهمها مكة المكرمة والمدينة المنورة وعدن وتعز ورداع وصنعاء وهرمز.

إذا كانت هذه المرحلة تعد من أهم المراحل التي حرص فيها فارتيما على زيارة هذه المدن المهمة من بلاد العرب، إلا أن بعض التفاصيل التي أوردها في كتابه تعد - من وجهة نظرنا - غامضة. عندما تحدث عن أبقار ذات قرن واحد التي رآها في زيلع يجعل وصفه في محل تساؤل فيما إذا كان يقصد وحيد القرن وما كان لهذا الحيوان أن يكون هناك. وخلال رحلته إلى مكة والمدينة عام 908هـ زار حسب ما ذكر في كتابه المسجد الحرام لكنه ربما لم يره من الداخل لأنه وإن كان قد أكد على رؤيته للمسجد الحرام من الداخل فإن روايته لهذا الموضوع تحتوى على كم من المعلومات الخاطئة التي تثير أيضاً لدى القارئ بعض الشكوك حول بعض التفاصيل. كما أنه من ضمن ما رآه في حرم المسجد الحرام في مكة المكرمة ولم يتحدث عنه باقي الرحالة الأجانب هو وجود زوج من حيوان وحيد القرن داخل مكان مسور. كما أن القارئ لكتاب رحلته يضع قصة فارتيما مع زوجة السلطان عامر بن عبد الوهاب عندما كان سجين وإدعائه الجنون للتخلص من السجن⁽¹⁾ في محل شك. لأنه ادعى أن السجن الذي أودع فيه هو وصديقه يوجد في أعلى قصر السلطان الذي تسكن فيها الأميرة زوجة السلطان عامر. إلا أنه من النادر أن يكون السجن في أعلى مكان من قصر الأسرة الحاكمة. ثم أن فارتيما يتناقض بقوله أن الأميرة كانت "تنزل" إلى غرفته لزيارته بصحبة وصيفاتها وهو الذي قال بأن السجن يوجد في أعلى القصر. لكن إقامته في عدن تبدوا إلى حد ما واقعية كما أن وصفه لمدينة بلاد العرب قد أثار فضول الرحالة

(1) تفاصيل القصة في سياق النص المترجم.

الغربيين في القيام برحلات استكشافية في كل من بلاد العرب والجزر الواقعة في المحيط الهندي والقارتين الأفريقية والآسيوية.

ولهذا فإن كتاب فارتيمّا لا يمثل قيمة علمية يعتد بها في البحث العلمي إلا فيما يمثل الوصف الواقعي للأماكن التي زارها فعلاً. وقد حرصنا أن نقدم للقارئ ترجمة ابتداءً من نهاية الجزء الثاني والجزء الثالث والرابع وبداية الجزء الخامس مع أن الجزء الرابع لا يتحدث عن رحلته إلى العربية السعيدة بل عن رحلته الاضطرارية إلى الساحل الأفريقي بسبب العاصفة التي حالت دون الإبحار إلى عدن ومنها إلى بلاد فارس. وقد قمنا بترجمة الباب الرابع لأسباب عدة، أولها لأنه يأتي بين كل من النص الذي يصف فيه جيزان ونجران وعدن وصنعاء وتعز ويريم ودمت وذمار والنص الذي يتحدث فيه عن السواحل الشرقية للعربية السعيدة وأهمها هرمز والتي روى فيها قصه ابن السلطان الذي أحرق إخوانه ووالديه بعد أن فقأ أعينهم لكي يستولي على الحكم. كما أننا أردنا هنا ترجمة رحلته إلى السواحل الشرقية لأفريقيا وذلك لأهمية المعلومات التي ذكرها الرحالة بخصوص العلاقة بين سكان كل من بريرا وزيلع مع سكان العربية السعيدة والتبادل التجاري بينهم. بالإضافة إلى ذلك حرصنا على تتبع سير الرحلة منذ انطلاقها من ميناء جدة وحتى الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية حتى لا يكون هناك حلقة مفقودة بين رحلته في المناطق الجنوبية الغربية والمناطق الجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية. أما الجزء الخامس الذي يحتوي على رحلته إلى السواحل الشرقية لشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس فقد قمنا بترجمة بداية هذا الجزء وهي النصوص الخاصة برحلته إلى هرمز.

بعد عودة لودوفيكو دي فارتيمّا من رحلته قام بنشر كتابه بعنوان رحلة فارتيمّا *L'itinerario de Varthema* في روما عام 1511م باللغة الإيطالية. إلا أننا اعتمدنا في ترجمة هذه النصوص على الطبعة الفرنسية الواردة في المجلد التاسع من كتاب مجموعة الرحلات *Recueil de voyages* التي أشرف على ترجمتها ونشرها شيفر⁽²⁾. كما استعنا أيضاً بالترجمة الفرنسية التي نشرها بول تيسيه⁽³⁾ في كتابه رحلات ليودوفيكو دي فارتيمّا *Voyages de Ludovico di Varthéma* وذلك لتقريب المعنى عند مواجهة صعوبة في فهم النص الوارد في كتاب شيفر

(2) Recueil de voyages, IXe vol, sous la direction de MM. CH. SCHEFER, t. IX, « Les voyages de Ludovico Di Varthéma », Paris, Ernest Leroux, 1888.

(3) Paul Teyssier, Voyages de Ludovico Di Varthéma, préface de Jean Aubin, Paris, Chandeigne, 2004.

وكذلك للاستفادة من الحاشية التي ضمنها تيسيه في نهاية كتابه لتوضيح بعض المواضيع الهامة، أي أن الحاشية التي نوردها هنا هي الحاشية التي وردت في ترجمة شيفر مع إضافة بعض التوضيحات الهامة من نسخة تيسيه عند اللزوم. كما أننا استعنا ببعض المراجع العربية والفرنسية وروايات الرحالة الفرنسيين للتعزود ببعض الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو غيرها والتي أوردناها في الحواشي. يحتوي كتاب فارتيمو على ستة رسومات تصور في مجملها أهم الأحداث التي دارت عند تواجده في البلاط الملكي أو السلطاني في اليمن في عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب.

نص الترجمة:

الجزء الثاني

جدة ميناء مكة والبحر الأحمر⁽⁴⁾

بما أن هذه المدينة ليست محاطة بحصون، وتحتوي على منازل جميلة على الطريقة الإيطالية فسوف أشرح في وصفها باختصار. يوجد فيها تجارة مزدهرة ولهذا يقصدها أعداد كبيرة من البائيان⁽⁵⁾، غير أنه لا يمكن للمسيحيين أو اليهود الوصول إليها. عندما وصلت إلى هذه المدينة ذهبت على الحال إلى المسجد أي إلى معبدهم حيث كان يوجد ما يقارب 25000 فقير كانوا يريدون أن يعودون إلى بلادهم. لقد اختبأت في أحد أركان هذا المعبد وبقيت هناك أربعة عشر يوماً. وكنت طوال النهار امتد على الأرض مغطى بملايسي، أئن باستمرار كما لو أنني كنت أعاني من ألم في المعدة أو في الجسم. وكان التجار يقولون:

من هذا الرجل الذي يئن؟

وكان الفقراء الذين بالقرب مني يقولون:

هذا مسلم فقير سيموت.

في المساء عند منتصف الليل كنت أخرج من المسجد لأشتري شيء ما للأكل. وسأترككم تتخيلون ما إذا كان لدي الشهية، لأنني لم أكل إلا مرة

(4) يقع هذا النص الخاص بميناء جدة في نهاية الجزء الثاني من كتاب رحلة فارتيمو.

(5) البائيان هم اليهود الذين يصلون إلى موانئ الجزيرة العربية لتبادل التجارة ومعظمهم من الشيخ وورد وصفهم في الكثير من كتابات الرحالة الغربيين.

واحدة في اليوم وغالباً بسوء. هذه المدينة تخضع لسلطة والي القاهرة والذي يحكمها هو أخ لـ بركات Barachet⁽⁶⁾ سلطان مكة والاثنان يخضعان لسلطان القاهرة العظيم. لا يوجد هنا شيء يستحق الذكر، فهم مسلمون والأرض لا تنتج شيء وينقصها كثيراً الماء وأعني بذلك الماء العذب، أما البحر فيلتطم في جدران المنازل.

ويوجد هنا كل المنتجات اللازمة لكنها تأتي من القاهرة والعربية السعيدة وأماكن أخرى. ويوجد في هذه المدينة وباستمرار أعداد كبيرة من المرضى، ويقال أنه بسبب الجو السيئ. وفي هذه المدينة حوالي 500 منزل. وبعد أربعة عشر يوماً اتفقت مع ربان سفينة كانت متجهة إلى بلاد فارس. لأنه يوجد في هذا الميناء ما يقارب مائة من السفن الكبيرة والصغيرة. وبعد ثلاثة أيام رفعنا الشراع وبدأنا في الإبحار في البحر الأحمر.

الجزء الثالث

بلاد العربية السعيدة

مدينة جيزان وخصوبتها

بعد أن تحدثنا عن كل ما رأيناه من أماكن، ومدن وعادات سكان عربية الصحراوية بقدر ما استطعنا رؤيتهم، تراءى لنا أنه من الأفضل أن نتعرض بإيجاز وبكل سرور لبلاد العربية السعيدة. فبعد مرور ستة أيام وصلنا إلى مدينة جيزان⁽⁷⁾. يوجد في هذه المدينة ميناء جميل جداً، ووجدنا فيه خمسة وأربعين سفينة من بلدان مختلفة. تقع المدينة المذكورة على ساحل البحر وهي تخضع لحاكم مسلم⁽⁸⁾، وهي منطقة خصبة بالثروات وذات منظر خلاب كالمناطق المسيحية. ويوجد هنا بغزارة أجود أنواع العنب والخوخ والسفرجل والرمان وثوم ذو رائحة نفاذة جداً ويصل جيد وجوز وشمام وورود وأزهار وخوخ وتين ويقطين وخيار

(6) هو بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي شريف مكة بين عامي 902-931هـ في عهد السلطان العثماني سليمان الثاني.

(7) هذه المدينة الواقعة على بعد ثلاثة عشر ميلاً من الجنوب الشرقي لرأس طورفة تحتوي على بعض المنازل المربعة من الأحجار، لكنها تتكون أساساً من أكواخ من القش، معظمها مستديرة وذات قمم هرمية. وفيها قلعة كبيرة أصبحت خربة وسوق صغير يعج بالأغذية الجافة التي يستخدمها سكان المنطقة. ويعمل السكان خاصة في صيد اللؤلؤ من الشواطئ المحيطة.

(8) كان يحكم مدينة جيزان في الفترة التي زارها فارتيمّا أحد الأشراف، مستقل عن سلطان صنعاء، ويدعى الشريف عز الدين ابن أحمد. أنظر قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، المجلد الرابع، ص 422.

وليمون وبرتقال حامض. وباختصار إنها فردوس حقيقي. وسكان هذه المدينة يسبرون في معظم الأوقات شبه عراة ويعيشون على الطريقة الإسلامية. ويوجد هنا بوفرة كل من اللحوم والقمح والشعير والذرة البيضاء التي يسمونها ذرة والتي يصنع منها الخبز الجيد، وقد مكثنا هنا ثلاثة أيام للتزود بالمؤن اللازمة.

مجموعة من الناس يسمون البدو

بعد أن غادرنا مدينة جيزان ستمرينا في الإبحار لمدة خمسة أيام بمحاذاة البر الذي كان عن يسارنا، وعندما رأينا بعض السكان على الساحل نزل منا أربعة عشر رجلاً لنطلب منهم بعض المؤن مقابل النقود، فلم يجيبوا على طلبنا سوى بقذف الحجارة علينا من مقاليعهم. وهؤلاء هم مجموعة من الناس يقال لهم البدو. كان عددهم يزيد على المائة وكنا أربعة عشر رجلاً فقط. اشتبكنا معهم في قتال استغرق حوالي ساعة حتى قتل منهم أربعة وعشرين رجلاً في ساحة المعركة ولأذ الآخرون بالفرار، لأنهم كانوا عراة ولم يكن لديهم أسلحة سوى هذه المقاليع، فأخذنا كل ما استطعنا من دجاج وعجول جيدة وغير ذلك مما هو صالح للأكل. وفي غضون ساعتين أو ثلاث بدأ سكان هذه البلاد بالاحتشاد حتى وصل عددهم أكثر من ستمائة، فاضطررنا الانسحاب إلى سفينتنا.

جزيرة تسمى كمران⁽⁹⁾ في البحر الأحمر

وفي نفس اليوم اتخذنا سبيلنا إلى جزيرة يقال لها كمران، يبلغ محيطها عشرة أو اثني عشر ميلاً، ويوجد فيها مدينة تقدر بحوالي مائتي منزل يسكنها المسلمون. ويوجد في الجزيرة ماء عذب ولحوم، ويستخرج منها أفضل أنواع الملح الذي لم أشاهده من قبل. وفي الجزيرة ميناء باتجاه الأرض المغلقة (ساحل البحر الأحمر)، ويبعد عنه قرابة الثمانية أميال. وهذه الجزيرة تخضع لسلطان اليمنيين Amamin⁽¹⁰⁾ وهو سلطان العربية السعيدة، وقد مكثنا في الجزيرة لمدة

(9) هذه الجزيرة ليس فيها سوى أربع مراحل، وهي قريبة من الأرض المغلقة (ساحل العربية السعيدة) بنصف مرحلة. وقبل أربع سنوات، استولى عليها جيشنا عندما دخل لأول مرة إلى البحر الأحمر بقيادة القائد الفونس البوكيرك والذي مكث فيها أربعة أشهر. ونظراً لنقص المواد الغذائية ذبحوا كل الحيوانات، وقطعوا الأشجار النمرور، وفي نهاية المطاف عند خروجهم منها أحرقوا مدينة كبيرة إلى حد ما، في كثافة سكانية وغنية لأن السفن ترسي التي كانت تمر من عدن إلى مكة كانت تتزود جميعها بالماء في هذا المكان الذي وجدته الأكثر حرارة من أي مكان آخر، لدرجة أنه مات بسببه الكثير من رجالنا. (الرسالة الثانية لأندريه كورسالي فلورانتا إلى الأمير الدوقة لورانت دو ميديسي، حررت في الثامن عشر من سبتمبر 1517، ضمن كتاب الوصف التاريخي لأثيوبيا، لدوم فرانسيس الفاريز. أنفير كريستوف بلاتنا، 1558، ص.ص. 29-30).

(10) يرى شيفر أنه يجب قراءتها اليمنيين (وهم سكان اليمن). ويرى بول تيسيه في ترجمة أخرى بالفرنسية، أن المقصود هو إمام صنعاء في اليمن والذي كان حينذاك أحمد ابن الإمام الناصر - (المترجم).

يومين، ثم واصلنا الإبحار باتجاه مدخل البحر الأحمر والذي يبعد مسافة يومين عن الجزيرة، وهناك يمكن الإبحار بأمان ليلاً ونهاراً، بينما من كمران حتى جدة فلا يمكن الإبحار ليلاً. وعندما وصلنا إلى هذا المضيق بدأ لنا كما لو كنا محاصرين، لأن المضيق لا يزيد عرضه عن ميلين أو ثلاثة، وعن الجانب الأيمن لهذا المضيق توجد أرض يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة أقدام، وعلى قدر ما يمكننا الرؤية على بعد هذه المسافة، فإنه لا يسكنها أحد⁽¹¹⁾، وعلى الجانب الأيسر من هذا المدخل يوجد جبل صخري مرتفع جداً، وفي منتصف المدخل توجد جزيرة صغيرة غير مأهولة تسمى باب المندب BAB-EL-MANDEL⁽¹²⁾. فالذين يريدون الذهاب إلى زيلع⁽¹³⁾ يبحرون إلى جهة اليمين، أما الذاهبون إلى عدن فيأخذون الجانب الأيسر، سلطنا هذا الاتجاه للذهاب إلى عدن، وقد وصلناها بعد يومين ونصف من مغادرتنا جزيرة باب المندب مبحرين بالقرب من الساحل.

مدينة عدن، وبعض عادات التجار

عدن هي أكثر المدن تحصناً لم أر لها مثيلاً على وجه الأرض، وهي محاطة بأسوار من جانبيين ويحميها من جانبيها الآخرين جبال عالية. يوجد في قمة هذه الجبال خمس قلاع⁽¹⁴⁾، وأرضها مستوية وسهلة وتضم خمسة أو ستة آلاف أسرة. يعقد بها سوق في الساعة الثانية ليلاً⁽¹⁵⁾ تجنباً للحرارة الشديدة أثناء النهار. وعلى مرمى حجر من خارج هذه المدينة (عدن) يوجد جبل في أعلاه قلعة، وعند سفح هذا الجبل تلقى السفن مراسيها⁽¹⁶⁾. إنها مدينة في غاية الجمال وهي

(11) الساحل الممتد إلى رأس بير يمر به إلى الدناكلة الذين يسكنون في الجبال في داخل الأراضي.

(12) جزيرة بريم أو ميون والموجودة في مضيق باب المندب قريبة من ساحل بلاد العرب. والجبل المرتفع الذي يتحدث عنه فارتيمو هو جبل حيقه Haikah.

(13) زيلع هو مرفأ يقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر المطل على خليج عدن في أقصى شمال الصومال - (المترجم)

(14) تذكر بعض المصادر العربية أن هذه القلاع أنشأها عثمان الزنجبيلي الذي عينه طوران شاه ابن أيوب، أخو صلاح الدين الأيوبي حاكماً على عدن سنة 571هـ (1175م) وقد ظلت بعض هذه القلاع قائمة حتى استيلاء الإنجليز على عدن سنة 1839 (المترجم).

(15) من المرجح أن المقصود هو بعد مغرب الشمس بساعتين، وقال بول تيسيه في ترجمته أنها تعادل الساعة عشرون في نظام التوقيت الفرنسي، أي الساعة الثامنة مساءً، فيما يعادلها الثانية بالتوقيت الزوالي الذي لازال مستخدماً عند البعض في اليمن حتى الآن - (المترجم).

(16) من المرجح أن المقصود بالجبل هنا هي جزيرة صيرة التي كان يربطها جسر بالبر العدني، وحسب ما ذكره إبراهيم أحمد المقحفي في كتابه معجم البلدان والقبائل اليمنية أن صيرة هي جزيرة صغيرة في أعلاها قلعة حصينة تقع شرق مدينة كريبتر عدن وترتبط معها بواسطة جسر حجري يمتد وسط مياه خليج حقات. وذكر أيضاً بأن صيرة كانت المرفأ القديم لعدن وبها رست سفن الملك سيف بن ذي يزن وأن الجبل كان يُتخذ كمنفى. ومن الأمور التي تشاع عن هذه جزيرة صيرة أن قابيل عندما قتل أخاه هابيل، وخاف من أبيه آدم، هرب من الهند واتجه إلى عدن

المدينة الرئيسية في بلاد العربية السعدية، وفيها تلتقي كل السفن التي تأتي من الهند الكبرى والهند الصغرى ومن إثيوبيا ومن بلاد فارس، وكل السفن التي تقصد مكة يجب أن ترسو فيها، وبمجرد أن تصل السفينة للميناء يصعد إليها ضباط سلطان هذه المدينة، ليعرفوا من ريانها من أين أتوا وما نوع البضائع التي ينقلونها ومنذ متى غادروا بلدهم وكم عدد الأشخاص على متن كل باخرة. وعندما يجمعون كل هذه البيانات يقومون بنزع أشرطة السفينة وساريتها ودفتها ومراسيها ويحملون كل ذلك معهم. يقومون بذلك لكي لا يغادر أحد دون أن يدفع الرسوم للسلطان. وفي اليوم الثاني من وصولي إلى هذه المدينة قبض علي ووضعت في السجن وكان ذلك بسبب أحد رفاقي الذي نعتني وقال لي: "يا كلب مسيحي يا ابن الكلب". وقد سمع بعض المسلمين ذلك القول، ولهذا السبب تم القبض علي مباشرة واقتادوني إلى قصر نائب السلطان وسرعان ما عقدوا اجتماعاً ليقرروا ما إذا كان يجب عليهم إعدامي على الحال، نظراً لأن السلطان لم يكن حينها موجوداً بالمدينة (عدن). لقد قالوا إنني جاسوس للمسيحيين، إلا أن كون سلطان هذه البلاد لم يسبق له قط إعدام أي شخص جعل هؤلاء الناس يبقوني حياً، وأبقوني سجيناً لخمس وستين يوماً مكبل القدمين بحديد يزن ثمانية عشر رطلاً. وفي اليوم الثالث من القبض علينا⁽¹⁷⁾ أقبل إلى القصر أربعون أو ستون شخصاً من المسلمين كان البرتغاليون قد استولوا على ثلاثة سفن لهم، ثم هربوا من قبضة البرتغاليين ووصلوا سباحة إلى الشاطئ. قال هؤلاء الناجون بأننا تابعين للسفن البرتغالية وقدمنا إلى عدن للتجسس. ولهذا فقد أقبلوا يركضون نحو القصر وهم في حالة هياج فظيع وأسلحتهم في أيديهم لقتلنا، لكن الله قد أحاطنا بعنايته لأن الشخص المكلف بحراستنا أسرع بإغلاق الباب من الداخل. وأدت هذه الحادثة إلى إثارة أهل المدينة فحملوا السلاح. رأى بعضهم ضرورة إعدامنا وعارض البعض الآخر. وفي نهاية المطاف استخرج نائب السلطان أمراً من السلطان للإبقاء علينا.

بعد مرور اليوم الخامس والستين أرسل السلطان في طلبنا وحملنا الاثنين على ظهر جمل والقيود الحديدية في أقدامنا. لقد استغرقت منا الطريق مسيرة

واستمر في جزيرة صيره، ولأنه كان حزينا لفراق أهله فقد ظهر له الشيطان وأدهاه بعض الآلات الموسيقية ليسلي نفسه، ومن الخرافات التي تشاع أيضاً أن نار جهنم ستبتق يوم الحساب من صخرة جزيرة صيره. وقد احتل البرتغاليون جزيرة صيره عام 1516 ورفعوا القلعة في قمة جبلها، ولا تزال بقايا القلعة قائمة حتى اليوم - (المترجم).

(17) في عبارة سابقة لم يتحدث الكاتب بصيغة الجمع التي يتحدث بها في هذه العبارة - (المترجم).

ثمانية أيام ثم قدمنا إلى السلطان في مدينة يقال لها رداع⁽¹⁸⁾، كان السلطان عند وصولنا إليه يستعرض 80.000 مقاتل لأنه كان بصدد خوض حرب مع سلطان آخر هو سلطان صنعاء Sana'a التي تبعد عن رداع مسافة تستغرق ثلاثة أيام⁽¹⁹⁾. ويقع جانب من صنعاء على جبل، كما يقع الجانب الآخر منها في السهل، وهي مدينة غاية في الجمال وعريقة جداً، كما أنها عامرة بالسكان وغنية. وعندما مثلنا أمام السلطان سألني عن بلادي، فأجبته قائلاً "أنا بلاد الروم يا سيدي أنا أجي من الكايرو"⁽²⁰⁾، أنا أجي مدينة النبي ومكة، وبعد أنا أجي بلدك. كل رجال قالن أنت سيدي شيخ يا سيدي أنا عبدك. أنت ما تعرف سيدي أنا مسلمين" أي (وهذا تفسير الكاتب أيضاً) "أنا من بلاد الروم يا سيدي، وقد فعلت من نفسي من المماليك في القاهرة، وكنت في المدينة حيث قبر النبي محمد، ثم في مكة المكرمة، وقد أتيت لأرى مملكتكم لأن كل الناس في سوريا وفي مكة والمدينة يقولون أنه ولي وإذا كان بالفعل وليكما كنت أظن يجب أن يعرف لم أكن جاسوساً للمسيحيين وأنني مسلم حقيقيي وبأنني عبده" فقال لي السلطان: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله، لكنني لم أستطع النطق بهذه الكلمات على الإطلاق، إما لأن هذه كانت إرادة الله أو لأن الخوف عقد لساني. ولما رأى السلطان أنني لم أستطع النطق بهذه الكلمات (الشهادتين) أمر على الفور بإلقائي في السجن مع حراسة مشددة يقوم عليها رجال من ثمانية عشرة قلعة بحيث يجمع لهذا الغرض أربعة رجال من كل قلعة من هذه القلاع. وقد بقي في حراستي في بداية الأمر أربعة رجال لمدة أربعة أيام ثم استبدلوا بأربعة آخرين من أربع قلاع أخرى، وبهذه الطريقة كانوا يقومون على حراستي طوال شهور ثلاثة، وكانوا يقدمون لي رغيف دخن في الصباح، ورغيفاً آخر في المساء، مع أن ست من

(18) وحسب ما ذكره شيفر: رداع هو اسم مخلاف ومدينة في اليمن. شيدت رداع في سهل وعلى منحدر جبل في قمته يبرز قصر قوي وأبراج. رداع حسب ما ذكره ياقوت (أي ياقوت الحموي) أسست وسكنت من قبل الغزاة الفرس. تقع رداع إلى الشمال من عدن على بعد 160 ميلاً وعلى بعد ستين ميلاً من صنعاء. وبالرجوع إلى ما قاله إبراهيم المقحفي في معجم البلدان والقبائل اليمنية فإن رداع مدينة كبيرة شرقي زمار بمسافة 53 كيلومتراً، وتعرف بـ رداع العرش وورد ذكرها في النقوش الحميرية وسكنها التبع شمر يرعش كما سكنها السلطان عامر عبدالوهاب - (المترجم).

(19) حسب شيفر: كان الأمير الحاكم في صنعاء هو الإمام أحمد ابن الإمام الناصر والذي لقب بالمنصور بالله. وقد تولى الحكم عام 908هـ الموافق 1502م بعد أخوه الإمام محمد الناصر. انظر تاريخ اليمن وصنعاء الذي صدر في القسطنطينية عام 1290هـ الموافق 1873، المجلد الأول، ص 10. وكان حينها الأمير ابن عبد الوهاب الملقب بالملك الظافر سلطاناً على عدن وجنوب اليمن، وكان كما أشرنا في حاشية سابقة شافعيّاً سنياً، وكان في حالة نزاع مع أئمة صنعاء - (المترجم).

(20) يقصد بها القاهرة - (المترجم).

هذه الأربعة لم تكن لتكفيني ليوم واحد، وإذا ما حصلت في بعض الأحيان على ما يكفيني من الماء فإن ذلك كان يبعث فيني السعادة.

وبعد يومين من إيداعي في السجن توجه السلطان إلى مدينة صنعاء بجيشه الذي من بينه ثلاثة آلاف فارس من أبناء المسيحيين وهم سوداً كالمسلمين⁽²¹⁾. لقد كانوا من أتباع القديس يوحنا Prêtre Jean⁽²²⁾ الذين تم شراؤهم وهم في أعمار تتراوح بين الثامنة والتاسعة ودربوا على حمل السلاح وقد كان هؤلاء يكونون الحرس الخاص للسلطان لأنهم كانوا أفضل من بقية الجنود، بل ويساؤون في مهارتهم بقية الجنود البالغين 80.000 مقاتل. وكان الباقون جميعهم عراة إلا من قطعة من الكتان يرتديها الواحد منهم كنصف سترة على هيئة معطف. وعندما يخوضون المعركة يستخدمون تروساً مستديرة مكونة من قطعتين من جلود الأبقار أو الشيران ملتصقتين معاً. وفي وسط هذه التروس المذكورة أنفاً يوجد أربعة قضبان تمسكهم لتظل التروس مستقيمة. وهذه التروس مطلية حتى تبدو لمن يراها أجمل شكلاً والأفضل في العالم. ويبلغ الترسان في حجمه كقاع برميل، أما مقبضه فمكون من قطعة خشبية متوسطة كي يمكن إمساكها باليد ومثبتة بمسمارين. كما يحمل المقاتلون في أيديهم أيضاً سهماً وسيفاً قصيراً وعريضاً، ويرتدون على ظهورهم نسيجاً مصنوعاً من القطن أحمر اللون أو لون آخر، يقيهم من البرد ومن بأس الأعداء، وهذا هو اللباس العام أثناء المعركة. كما يحمل كل منهم أيضاً مقلعاً لقذف الأحجار على أعدائهم، وهم يضعونها حول رؤوسهم، وتحت هذه المقاليع يضع الواحد منهم قطعة من خشب بطول شبر تسمى مسواك يستخدمونها لتنظيف أسنانهم. وبشكل عام فإن من تقل أعمارهم عن أربعين أو خمسين عاماً يلبس الواحد منهم قرنين ضفرا من

(21) يقول المؤرخون اليمينيون بأن السلطان عامر عبد الوهاب مر بهذا الجيش إلى رداغ وترك هذه المدينة في يوم الثلاثاء 29 ربيع الآخر 910 هجرية الموافق 11 سبتمبر 1504م متجهاً إلى دمار ومنها إلى صنعاء. ولدينا أيضاً التاريخ الصحيح لوصول فارتيما إلى معسكر هذا الأمير - شيفر. وهذا يؤكد بأن فارتيما وصل إلى العربية السعيدة عام 1504 وليس عام 1503 - تيسيه.

(22) هم الأحباش (أو الأثيوبيون)، وقد كان البرتغاليون يسمون بلاد الحبشة - في هذه الفترة - مملكة القديس يوحنا، وما يذكر أن الكشوف الجغرافية البرتغالية منذ أيام هنري الملاح كان من ضمن أهدافها الوصول إلى مملكة القديس يوحنا (الحبشة) ظناً من البرتغاليين أنها كانت مملكة قوية يمكن التحالف معها لتطوير العالم الإسلامي. لكن ذلك لم يحدث، والواقع أن ما كتبه فارتيما في كتابه هذا عن بلاد العرب، من حيث دفاعه عن الملك البرتغالي وتحسره على رجال القديس يوحنا وما إلى ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه في مقدمة الترجمة العربية من أن الرجل كان يعمل لحساب البرتغال - (المترجم).

شعره الخاص، فتراهم يشبهون الماعز. وقد أصطحب السلطان آنف الذكر مع جيشه أيضاً خمسة آلاف بعير محملة بالخيام والحبال وكلها من القطن⁽²³⁾.

شغف نساء العربية السعيدة بالرجال البيض

بعد أن رحل الجيش إلى صنعاء، عدنا إلى السجن في أعلى القصر. لقد كان في قصر المدينة الذي ذكرته آنفاً إحدى زوجات السلطان الثلاث مع اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة من الوصيفات العذارى في غاية الجمال، وكانت بشرة زوجة السلطان هذه أقرب إلى السواد. وكانت هذه الأميرة⁽²⁴⁾ قد قدمت لي خدمة كبيرة. لقد كنت أنا ورفيقي ورجل عربي مسلم في السجن معاً، وكنا ثلاثتنا قد رتبنا أمرنا على أن يتظاهر واحد منا بالجنون كي يساعد كل منا الآخر، وعند إجراء القرعة لمعرفة من سيقع عليه الحظ، فكان من نصيبي أن أكون مجنوناً. وعندما أخذت الأمر على عاتقي، كان علي أن آتي من الأمور ما يمكن أن يأتي به المجانين. والحقيقة أنني شعرت في الأيام الثلاثة الأولى التي مثلت فيها دور المجنون بالتعب والإنهاك بما لم أشعر به قط من قبل. والسبب في ذلك أن خمسين أو ستين من الأطفال الصغار كانوا يلاحقونني دوماً، ويرجمونني بالحجارة. فكانوا يرموني بالحجر كما كنت بدوري أرميهم. وكانوا يصرخون في أثري قائلين: "يا مجنون.. يا مجنون" وكنت دوماً أملاً ثيابي بالحصى والأحجار، وأتصرف كمجنون. وكانت الملكة تطل دوماً مع وصيفاتها من النافذة، وتظل هكذا عند النافذة من الصباح حتى المساء، لتراني وتتجاذب معي أطراف الحديث، وكان كثيرون من الرجال العابرين والتجار يهزؤون بي ويسخرون مني فكنت أنزع قميصي حتى أغدو عارياً تماماً، وكنت أمر هكذا من أمام الملكة، فكنت أرى أنها كانت تبدي سعادة فائقة عند رؤيتي، وتتشبث بي كي لا أتركها قط، وكانت تقدم لي طعاماً لذيذاً من أجود اللحوم لأكله حتى أكف عن إبداء رغبتني في البعد عنها، وكانت تقول لي: "اضرب من سيؤذيك، وإذا قتلتهم فالحجة عليهم". وكان ثمة خروف يمر في الساحة السلطانية، تزن ليته أربعين رطلاً فأمسكت به وسألته إن كان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً، فلم يجب الخروف، ورحت أكرر له لكلمات مراراً ثم قلت له: "إذا أنت مسلم قل: لا إله

(23) لم تكن الأسلحة النارية شائعة الاستعمال في اليمن قبل سنة 921هـ (1515م) عندما أدخلتها الحملة المصرية، وبدأ استخدامها في الحروب في المنطقة الساحلية المواجهة لجزيرة كمران.

(24) لقب فارتينا زوجة السلطان بألقاب عدة وهي الأميرة والملكة والسلطانة - (المترجم).

إلا الله، محمد رسول الله" إلا أن الخروف وقف دون أن ينطق بكلمة، فهو حيوان بائس. فتناولت عصا وضربته حتى كسرت قوائمه الأربع.

فكانت الأميرة تغرق في الضحك، وقد أطعمتني من لحم هذا الخروف لمدة ثلاثة أيام، وكان لحمًا لذيذًا لم أكل مثله قط من قبل. وبعد ذلك بثلاثة أيام قَلْتُ بالطريقة ذاتها حماراً كان يحمل الماء إلى القصر، لأنه رفض أن يكون مسلماً⁽²⁵⁾. ثم فعلت بالطريقة نفسها مع يهودي وتركته قريب الموت. لكن ذات يوم بينما كنت أريد أن أقوم بنفس الشيء مع حيوان آخر صادفت في طريقي واحداً من أولئك الذين يحرسونني وكان الرجل أكثر جنوناً مني، فقال لي: (يامسيحي يا كلب... يا ابن الكلب) فرشقته بالحجارة إلا أنه التفت نحوي يقذفني وجميع الأطفال بالحجارة في خصري فألمني بشدة. ولم أعد قادراً على متابعته لوجود القيود الحديدية في قدمي، فاتخذت سبيلي إلى سجني، لكن قبل أن أصل إلى السجن قذفني بحجر آخر كبير في الضلع، فألمني أكثر من الحجر الأول. كان يمكنني ببسر أن أتحاشى الحجرين إذا ما كنت راغباً في ذلك، لكنني آثرت أن أتلقى الضريبتين، لكي أبدوا لهم مجنوناً حقيقياً. وعقب ذلك أسرعرت فوراً بدخولي السجن وأوصدت الباب بأحجار ضخمة، وظللت نهارين وليلتين دون طعام أو شراب لدرجة أن الأميرة والآخرين كانوا يظنون بأنني قد لاقيت حتفي. فأمرت الملكة بكسر الباب، وأحضر لي هؤلاء الكلاب بعض قطع الرخام وقالوا لي "كل فهذا سكر"، وآخرين أعطوني عنباً مليئاً بالتراب وقالوا لي بأنه ملح. فابتلعت الرخام والعنب معاً.

وفي اليوم ذاته أحضر بعض تجار المدينة رجلين يعتبرونهما من الصالحين الأتقياء يسكنون في بعض الجبال القريبة من هناك. فعرضوني عليهما وسألوهما التجار عن ما إذا كنت أبدو لهما صوفياً أم مجنوناً، فقال أحدهما الرجلين: يبدو لي أنه صوفي. وقال الآخر: يبدو لي أنه مجنون. وظلا يتناقشان في هذا الأمر حتى مضت أكثر من ساعة. ولكي أتخلص منهما، خلعت ثيابي وتبولت عليهما، فهربا وهما يصيحان: مجنون.. إنه مجنون.. ليس صوفياً.⁽²⁶⁾ وكانت الأميرة مع وصيفاتها قرب النافذة ورأين هذا المنظر فضحكن، وقالت الأميرة: "والله، ورأس النبي.. هذا الرجل ما في الدنيا مثله". وفي صبيحة اليوم التالي وجدت الرجل

(25) فعل معه مثل ما فعل مع الخروف كي يبين لهم أنه مجنون - (المترجم).

(26) الكلمات بنصها العربي مكتوب بالفرنسية: مجنون... صوفي ما في، أو صوفي مفيش - (المترجم).

الذي كان قد قذفني بالحجرين في حالة سكون ونعاس، فأمسكته من شعره ووضعت ركبتي على بطنه، ورحت ألكمه بقوة على وجهه حتى تغطى بالدم. وكانت الأميرة عند نافذتها تطالع وتبدي دهشتها وتقول: "أقتل هؤلاء الدواب". فذهب الرجل ولم يستطع أحد حراستي. وقد اكتشف حاكم هذه المدينة دلائل متعددة أن رفيقي في السجن يدبران للهرب إذ أحدثا فتحة في السجن وأزاحا القيد من أرجلهما، وبما أنه قد عرف بأن الأميرة مسرورة جداً مني لذا فلم يلحق بي أي أذى حتى يكلمها بشأني، وعندما علمت الأميرة بالأمر كاملاً، أدركت أنني عاقل، فأرسلت لطلبي وأمرت بوضعي في غرفة سفلية بالقصر، لا باب لها، لكنها أبقت على القيد في رجلي.

كرم الأميرة

في الليلة الأولى التالية لذلك، قدمت الأميرة لزيارتي مع خمس أو ست من وصيفاتها، وشرعت تتفحصني، وبدأت أبدي لها بالتدريج ما يفيد أنني لست مجنوناً. وبما أنها امرأة ذكية فقد كانت ترى أنني لست مجنوناً البتة، وبدأت تفعل الشيء الكثير من أجلي، فبعثت لي بسرير مصنوع على طريقتهم وأرسلت لي كثيراً من الطعام الجيد. وفي اليوم التالي أعدت لي حماماً وعطوراً جيدة. واستمرت هذه العناية بي على هذا النحو اثني عشر يوماً. وبعد ذلك راحت تنزل لي في غرفتي كل ليلة في الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل، وكانت في كل مرة تجلب لي معها ما لذ وطاب من طعام وكانت تدخل إلي في مخدعي وتدعوني قائلة: "يونس... تعال أنت جائع؟" فأجيبها قائلاً: "إي والله"، وأنا أفكر بالجوع الذي يملكني. وأقوم من مرقي، فأقف على قدمي، أخطو إليها وعلي قميصي. لكنها قالت: "ليش ليش هذا القميص فوقك" أي "لماذا ترتدي هذا القميص.. أخلعه" فأجبته: "ياستي أنا مو مجنون ذا الحين" أي يا سيديتي.. أنني لست مجنوناً الآن" وعندها أجابتنني: "والله أنا عارفه، أنت أبداً ما مجنون.. أنت ما في الدنيا مثلك" أي أنت أعقل رجل في الدنيا. وحتى أسعدها خلعت قميصي ووضعته أمامي بحياء، فأمسكتني أمامها لساعتين من الزمن وراحت تتأملني بإعجاب كما لو كنت حورية وراحت تشتكي إلى الله بهذه الكلمات: "يا الله أنت خلقت هذا الرجل أبيض مثل الشمس، وخلقته سوداء.. يا الله يا نبي.. لماذا زوجي أسود... وولدي أنا أسود.. وهذا الرجل أبيض.. إن شاء الله هذا الرجل يكون زوجي..

وإن شاء الله يكون أولادي مثل هذا" (27) وكانت الأميرة وهي تتضرع بهذه الكلمات لا تكف عن البكاء والتنهد وابداء اللهفة بتميرير يديها علي طوال الوقت، واعدة أنه بمجرد أن يعود السلطان فإنها ستجعله يفك قيودي. وفي الليلة التالية أتت الملكة ومعها وصيفتان عند منتصف الليل تقريباً، وأحضرت لي طعاماً طيباً لأكله وقالت لي: "تعال هنا يا يونس أنا أجيء إلى عندك"، فأجبته: "ليش يا ستي أنا مقيد يا؟"، فقالت الملكة: "أتريد أن أتي لأجلس معك بعض الوقت؟" فقلت: لا، يكفيني أن أكون مكبل بالقيود في رجلي، أفضل من أن تقطع رأسي". فقالت: "لا تخف أؤكد لك على رأسي، وإن كنت أنت لا تريدني أن أتي، فسوف تأتي غزالة أو ثقية أو خيزرانة." لقد قالت ذلك متظاهرة بأنها تريد واحدة من الثلاث أن تأتي لتبقى معي. لكنها كانت تريد أن تأتي بنفسها لتجلس معي، فلم أقبل أبداً، لأنني كنت أتوقع ذلك منذ أن بدأت تعطف علي وتقدم لي كل الأشياء الجميلة بالإضافة إلى أنني وضعت في اعتباري أنها لو كانت قد حققت رغبتها فإنها كانت سوف تعطيني ذهباً وفضة وخيولاً وعبيداً وكل ما أريده، وبعد ذلك قد تقدم لي عشرة عبيد سود ليحرسونني لكي لا أستطيع أجد الوسيلة للخروج من البلاد. لأن كل بلاد العربية السعيدة ستعلم بذلك وعلى الأقل عند الطرق، وإذا ما فكرت في الهرب ذات مرة فلن أفلت من الموت أو على الأقل السجن مدى الحياة. ولهذا السبب لم أرضخ قط لرغبتها، كما أنني أيضاً لم أكن راغباً في أن أفقد الروح والجسم معاً (28)، فرحت أبكي طوال الليل موكلاً أمري إلى الله. وبعد بثلاثة أيام من ذلك عاد السلطان، فأرسلت الملكة علي التو إلي من تخبرني بأنني إذا كنت أراغب في البقاء معها فإنها ستجعلني ثرياً، فأجبته: "أن عليها أولاً أن تفك قيودي وتوفي بوعدها الذي قطعته أمام الله ورسوله، وبعدها سوف أفعل ما ترغب به مولاتها" وسرعان ما عملت على استدعائي إلى حضرة السلطان الذي سألني عن الجهة التي سأقصدتها إذا ما فك قيودي، فأجبته: "يا سيدي، أب مفيش أم مفيش، مره مفيش، ولد مفيش، أخ مفيش، أخت مفيش، الله والنبي وأنت بس، سيدي. أنت تعطيني أكل، أنا عبدك"، "أي يا سيدي أنا ليس لدي أب ولا أم ولا زوجة ولا ولد ولا أخ ولا أخت، وليس لي إلا الله والنبي وأنت، فأن أبقيتني وأعطيتني ما أكل فأنا عبدك طول حياتي"، ورحت أبكي دون توقف. وكانت الملكة حاضرة طوال الوقت، فقالت للسلطان: "يجب أن تعمل حساب لريك في هذا الرجل المسكين الذي أبقيتموه في

(27) جميع الجمل باللغة العربية الدارجة مكتوبة بالحروف اللاتينية كما هي - (المترجم).

(28) المعنى المقصود: حتى لا أموت وأقع في الخطيئة في الوقت ذاته - (المترجم).

القيود لمدة طويلة بلا سبب" فقال السلطان: "حسناً، اذهب أينما شئت فأنت حر" وأمر سريعاً بضك قيودي، فركعت أمامه وقبلت قدمه، وقبلت يد الملكة والتي بدورها أمسكت يدي وقالت: "تعال معي أيها المسكين فأنا أعلم أنك تكاد تموت من الجوع" وعندما صرت في غرفتها قبلتني أكثر من مرة وقدمت لي ما لذ من طعام، لكنني كنت قد رأيت الأميرة تهمس للسلطان فاستنتجت أنها تطلب منه أن يمنحني لها كعبد خاص، لذا فقد قلت للملكة في غرفتها: "لن أذوق طعاماً قط قبل أن توعدين أن تعطيني حريتي" فقالت: "اسكت... مجنون! أنت ما تعرف أيش يعطي الله" أي اسكت أنت ما تعرف ما وهبك الله من خير. ثم استطردت تقول: "إن كان أنت مليح، أنت أمير" أي إن كنت طيباً فستغدو أميراً. وحينها عرفت أي نوع من الإمارة تريد إسباغها علي، إلا أنني أجبتها بأن تتركني قليلاً لأحظى بقسط من الراحة وأن استرد دمائي التي هربت من الخوف الذي لازمني لأنني كنت أمتلك رغبة أخرى غير رغبة الحب. فقالت الملكة: "والله أنت تتكلم مليح، أنا أعطيك كل يوم بيض ودجاج وحمام وفلفل وقرفة وفرنفل وجوز أهند". وعندئذ فرحت قليلاً نتيجة هذا الكلام الطيب والوعود التي غمرتني بها. ولأستعيد عافيتي، ظلت خمسة عشر يوماً أو اثني عشر في قصرها. وذات يوم أرسلت الملكة في طلبي لتسألني إذا ما كنت أرغب في الذهاب للصيد بصحبتها، فأجبت بالإيجاب وذهبت معها، وعند عودتنا من رحلة الصيد تظاهرت بأنني قد سقطت مريضاً من الإعياء، وظلت متظاهراً بهذا الأمر ثمانية أيام. فدأبت الملكة ترسل إلي على الدوام أشخاصاً لزيارتي والاطمئنان علي، وفي يوم أرسلت لأخبر الملكة أنني كنت قد نذرت لله ورسوله أن أزور ولياً في عدن وهو رجل كما يقال أنه يأتي بالمعجزات⁽²⁹⁾، ورحت أؤكد بركاته لكي أحقق غرضي. فأرسلت تخبرني بأنها قد سُرَّت لطلبي وأنها أمرت لي ببغير وخمسة وعشرين صيراف ذهب seraphes وقد سعدت كثيراً بذلك. وفي اليوم التالي ركبت على ظهر حصان⁽³⁰⁾ متوجهاً إلى عدن فوصلتها بعد ثمانية أيام، وسرعان ما زرت هذا الولي الذي كان يحظى بتقدير الجميع لشيئين، لأنه كان يعيش دوماً في عفة (لا يقرب النساء) وفقير

(29) هو سيد أبو بكر ابن عبدالله العيدروس. يخبرنا مؤلف كتاب (تاريخ ثغر عدن) بأن تحت حكم السلطان عامر كان السيد أبو بكر بن عبدالله العيدروس بورعه وتشفه طوال حياته قد حاز على احترام سكان عدن. وتوفي هذا الزاهد سنة 914هـ الموافق 1509م بعد أن شيد مسجداً سمي باسمه (شيفر).

(30) جميع النسخ التي تمكنا من قراءتها تبدي تناقضاً في نوع الراحلة التي ركبها إلى عدن، فقد قال أن الأميرة أعطت له بغيراً ثم قال أنه ركب حصاناً وهذا ما يرجح عدم صحة بعض المعلومات المبالغ فيها التي تحدثنا عنها في المقدمة - (المترجم).

ويتمتع بحياة ناسك حقيقي. وبالتأكيد فإن هناك عدداً كبيراً من الناس في هذا الأنحاء يعيشون كأولياء ويأبسون لحياة الفقر والتقصّف، إلا أنهم مخادعون فهم لم يتلقوا تعميداً baptisés⁽³¹⁾ وعندما أديت صلواتي في اليوم الثاني تظاهرت بأنني شفيت بفعل بركة هذا الرجل الصالح. بعد ذلك كتبت للملكة لأخبرها أنه ببركة هذا الرجل الصالح أصبحت معافى، وبما أن الله قد أحاطني بعنايته فأنتني أرغب في التجول في كل أنحاء بلادها. وقد أبديت هذه الرغبة لأن السفن كانت في هذا الميناء (عدن) وأنها لن تبحر قبل شهر. وقد تحدثت سراً مع ريان إحدى السفن مبدئياً له رغبتني في السفر إلى الهند وأنه إذا وافق على اصطحابي سأعطيه هدايا ثمينة، فأجاب بالموافقة ولكنه قال لي بأن السفن قبل الوصول إلى الهند ستعرج على بلاد فارس، وقد أبديت له سروري، وعلى ذلك اتفقنا.

لحج Lagi إحدى مدن بلاد العربية السعيدة وكذلك عزعز Aiaz وسوقها وقلة دمت Dante

وفي اليوم التالي ركبت على الحصان قرابة خمسة عشر ميلاً فوجدت مدينة يقال لها لحج Lagi⁽³²⁾ وهي أرض مستوية، ومأهولة جداً بالسكان. ويوجد فيها كثير من النخيل والمراعي والذرة تشبه تلك الموجودة في أرضنا، إلا أنني لم أجد هنا عنباً قط، كما أن الأخشاب نادرة. والسكان هنا من العرب وليسوا أثرياء. وقد غادرت لحج وذهبت إلى مدينة أخرى تبعد عنها مسافة يوم وهي مدينة عزعز Aiaz⁽³³⁾ التي تقع على جبلين بينهما واد غاية في الجمال وينبوع ماء جميل، وفي هذا الوادي يعقد سوق بالمدينة فيأتيه الناس من كلا الجبلين. ونادراً ما ينعقد

(31) يقصد التعميد المسيحي، لكنه لا يوجد في الدين الإسلامي مثل هذا الإجراء - (المترجم)

(32) يذكر شيفر بأن Lagi هي مدينة لحج، وأن الجغرافيون العرب لم يذكروها قط. فياقوت الحموي يكتفي بالقول بأن إقليم لحج هو إحدى الأقاليم التابعة لصنعاء. ويخبرنا نيبور بأن لحج هي اسم لمدينة صغيرة مع قلعة تابعة لمملكة عدن وهي مقر شيخ هذه المملكة. انظر كتاب "وصف العربية" للرحلة الدنماركي كارستين نيبور، ص 221. تقع إلى الشمال الغربي من عدن بحوالي ثلاثين ميلاً، وكانت وقت رحلة فارتيميا تابعة للأمير عبد الوهاب (أشرنا له في حاشية سابقة) وفي سنة 1517 م أصبحت تابعة لإمام صنعاء.

(33) يرى شيفر بأن المقصود بها هي مدينة حيس التي تقع بالقرب من ساحل البحر الأحمر بين الحديدة وزبيد والتي وصفها بوتا في كتابه "رواية رحلة إلى اليمن". ويرى البعض الآخر، ومنهم بادجر، بأنها عزعز التي وصفها كارستين نيبور باعتبارها قرية تابعة لعدن وتبعد عنها بمسافة يوم. والرأي الأخير هو المرجح لأن حيس تبعد بكثير عن لحج ولا تكفي يومين للوصول إليها. ومن هذين الرأيين نرجح أن تكون عزعز أو العزاعز. أما عن نوعية الصراع الديني الذي يتحدث عنه فارتيميا بقول تيسيه في ترجمته لكتاب فارتيميا بأن الصراع ناتج عن العداء بين السنيين والزيديين. ولكن يبقى السؤال المحير: هل كان سكان الجبال الجنوبية يتبعون المذهب الزيدي وسكان الجبال الشمالية يتبعون المذهب السني؟ - (المترجم).

السوق دون شجار ونزاع وسبب ذلك أن سكان الجبال الجنوبية يريدون من سكان الجبال الشمالية أن يؤمنون بمحمد ولا يريدون منهم يؤمنون سوى بمحمد⁽³⁴⁾، ويقولون بأن القادة الآخرين (أي الخلفاء) كذابين، ولهذا السبب يتقاتلون كالكلاب. دعونا نعد إلى السوق الذي تحدثت عنه والذي تأتي إليه جميع التوابل وكميات كبيرة من الأقمشة والصوف والحريير والفواكه الممتازة كالخوخ، والرمان، والسفرجل، والتين، والبندق، والعنب اللذيذ. ويجب معرفة أنه يوجد على قمة كل جبل من الجبلين اللذين أشرنا إليهما سابقاً قلعة حصينة. ومن هنا غادرت متوجهاً إلى مدينة أخرى تبعد منها يومين، وتسمى دمت Dante⁽³⁵⁾ وهي مدينة حصينة جداً، تقع على قمة جبل عال جداً ويسكنها عرب فقراء نظراً لأن أرضهم جدياء.

المقرانة Almacaran⁽³⁶⁾ إحدى مدن العربية السعيدة، ورخاؤها

ولكي أشبع الرغبة التي تملكنتني في معرفة أشياء جديدة، غادرت من هنا وأخذت طريقي إلى مدينة أخرى تبعد مسافة يومين سيراً تسمى المقرانة وهي تقع على قمة جبل، ويستغرق الصعود إليها قطع سبعة أميال عبر ممر ضيق لا يسع أكثر من شخصين يسيران متجاورين. وفي قمة الجبل يوجد سهل جميل تقع فيه هذه المدينة المذكورة آنفاً، وهي غاية في الجمال، وبهذا السهل من الطعام ما يكفي كل سكان هذه المدينة الجميلة. ولهذا فقد بدت لي أنها أقوى مدينة في العالم بسبب موقعها ووفرة طعامها، وليس ثمة نقص في الماء في هذه البلدة، كما لا ينقصها أي من مقومات الحياة". ففي البلدة خزان ماء يكفي لـ 100.000 شخص. ويحتفظ السلطان بكل نفائسه في هذه المدينة لأنها مسقط رأسه وبلدته الأصلية، لذا فالسلطان يجعل إحدى زوجاته دوماً في المقرانة. ويجب أن تعرفوا أن في هذه المدينة كل ما يخطر على البال من مواد غذائية، وأن أنقى هواء في العالم يمكن أن تتنفسه في هذا المكان. والسكان في غالبتهم بيض. ويحتفظ السلطان في هذه

(34) يقول تيسيه: "سكان الجبال الشمالية يريدون من سكان الجبال الجنوبية أن يؤمنون مثلهم بمحمد وصحابته، لكن هؤلاء لا يؤمنون إلا بمحمد وعلي ويقولون بأن القادة الآخرين (الصحابه) كذابين.

(35) يذكر شيفر بأن دمت تدعى Dimne عند نيبور وتقع في شرق الطريق المؤدية من تعز إلى صنعاء.

(36) يقول شيفر بأن المقرانة هو اسم قصر لم يذكره أي من الجغرافيين أو المؤرخين العرب حتى نيبور. لكن ياقوت يكتفي في قاموسه بالقول (المقرانة هي قلعة في اليمن). وقد أدعى فانسان لو بلان بأنه رآها وسمّاها Almacran. ومن المرجح أنها مدينة المقرانة في رداغ والتي ازدهرت في عصر الدولة الطاهرية تحت حكم السلطان عامر بن عبد الوهاب في بداية القرن السادس عشر الميلادي. عن المقرانة انظر الموسوعة اليمنية، ج4، ص2782.

البلدة من الذهب ما قد لا يمكن أن يحمله مائة جمل، وما كنت لأقول ذلك لولا أنني رأيت ذلك بعيني.

يريم Reame، إحدى مدن العربية السعيدة والحديث عن مناخها وعادات سكانها

بعد أن زرت مدينة المقرانة غادرتها واتخذت سبيلي إلى مدينة تبعد مسافة يوم واحد وتسمى يريم Reaulme (حسب تيسيه Reame)⁽³⁷⁾، أغلب سكانها من السود، وهم تجار كبار. والبلد خصبة جداً إلا من الغابات، وتضم هذه البلدة حوالي ألفي أسرة. وعلى أحد جانبي المدينة يوجد جبل تقع عليه قلعة حصينة للغاية، ويوجد هنا نوع من الخراف ثم أراها من قبل حيث يبلغ وزن لية بعضها أربعة وأربعين رطلاً، ليس لهم قرون وشحومها الزائدة تعيقها من المشي. ويوجد أيضاً في هذه المدينة نوع من العنب الأبيض لا بدور فيه، لم أذق أطيب منه طعمًا. ووجدت أيضاً كل أنواع الفاكهة كما ذكرت آنفاً. والمناخ هنا جميل ومتفرد في العالم. وقد أجريت حواراً في هذه البلدة مع أشخاص يزيد عمر الواحد منهم عن مائة وخمسة وعشرين عاماً ومع هذا فلا يزالون بكامل صحتهم ونشاطهم.

وغالبية الناس تسير تقريباً عريانة باستثناء ذوي الوضع الميسور منهم يرتدون قمصاناً. أما الطبقات الدنيا فيرتدي أفرادها نصف قطعة قماش يلفونها حول النصف السفلى من الجسم. وفي كل أرجاء العربية السعيدة يحمل الرجال قروناً مضفرة من شعرهم، أما النساء فيلبسن سراويل فضفاضة تشبه سراويل البحارة.

صنعاء، إحدى مدن العربية السعيدة، تحصنها ووحشية ابن الملك

وبعد ذلك اتخذت سبيلي إلى مدينة أخرى تسمى صنعاء⁽³⁸⁾ والتي تبعد مسيرد ثلاثة أيام، وتقع على قمة جبل عظيم وحصين للغاية. وقد عسكر السلطان فيها لفترة ثمانية أشهر برجاله البالغين 80.000 رجل ليستولي عليها، لكنه لم

(37) يقول شيفر: "Reaulme هو بدون أدنى شك اسم محرف لريمة Raïmah، وهو مكان حصين في إقليم صنعاء الذي يعود إلى بني الزبير. ريمة الأنباط هو أيضاً اسم مخلاف كبير في اليمن، معجم البلدان، المجلد الثالث، ص. 86. ويعتقد بادر بأن Reaulme هي مدينة يريم. الرحالة الدنماركي نيبور مر بيريم وأعطاه وصف قصير كما ضمن كتابه لوحة لها تمثل صورة واجهة القلعة وجزء من المدينة. - لكننا نرجح من المعطيات التي وردت في وصف المدينة أن المقصود بها هي مدينة يريم - (المترجم).

(38) يقول شيفر نقلاً عن القزويني بأن صنعاء هي عاصمة اليمن، وأنها مدينة مشهورة بجمال بناياتها ونقاء هوائها وعذوبة مائها وخصوبة أرضها، وأن الأمراض فيها نادرة.

يستطيع دخولها إلا بعد اتفاقية استسلام⁽³⁸⁾. وأسوار مدينة صنعاء مشيدة من الطين وبارتفاع يبلغ عشر ياردات brasses كما يبلغ سمكها عشرين باعاً، بحيث يمكن لثمانية خيول أن تسير فوقها جنباً إلى جنب. وفي هذه البلاد تنمو فواكه كثيرة تشبه تماماً تلك التي في بلاد⁽⁴⁰⁾ كما توجد ينابيع كثيرة. وفي صنعاء سلطان⁽⁴¹⁾ له من الأولاد أثناء عشر، أحدهم يسمى محمد، وهو شبيه بالمجانين فهو يعرض الناس ويقتلهم ثم يأكل لحمهم ميتاً حتى يشبع، ويبلغ طوله أربع برزات، كما أن جسمه متناسق، ولون بشرته زيتوني.

ويوجد في هذه المدينة أنواع عدة من البهارات التي تنمو نباتاتها في المناطق المتاخمة لها، كما أن المدينة تحتوي على حوالي 4000 منزل، وهي مساكن جميلة كما في تقاليدنا، ويوجد داخل المدينة بساطين جميلة وأغصان طيبة كتلك التي في بلاد⁽⁴²⁾.

تعز Taeza وزيب Zibit وذمار Damar، وهي مدن كبيرة في العربية السعيدة

بعد أن رأيت صنعاء رحلت إلى مدينة أخرى تبعد مسيرة ثلاثة أيام يقال لها مدينة تعز والتي تقع على ما يبدو على جبل، وهي جميلة جداً، خاصة بكل ما هو طيب وخاصة أن بها كميات كبيرة من ماء الورد، يذاع صيتها بأنها مدينة عريقة جداً. ففيها معبد مبني على شاكلة سانتا ماريا روتوندا في روما Santa Maria Rotonda، بالإضافة إلى عدد كبير من القصور القديمة الأخرى. كما أن

(39) صاحب كتاب "قرة العيون في تاريخ اليمن الميمون" قد أعطى بعض التفاصيل في كتابه عن الحملتين اللتين قام بهما السلطان عامر ضد صنعاء. وذكر أنه في نهاية شهر جماد الآخرة عام 907هـ الموافق نهاية ديسمبر 1501م وصل السلطان عامر إلى ذمار على رأس جيش عظيم فقام بحصار صنعاء في شهر رجب من السنة نفسها أي في يناير 1502م. فهب أهل زيب لنصرة أهل صنعاء الذين طلبوا مساعدتهم. فقام أهل زيب بمنع المؤن من الوصول إلى جيش السلطان عامر مما أجبره على رفع الحصار. والعودة إلى ذمار بعد أن هرب فلول زيب وكان ذلك في السابع من محرم 908 هـ الموافق 14 يوليو 1502م. وفي شهر صفر 911هـ الموافق يوليو 1504م قرر السلطان أن يحاصر صنعاء من جديد. وبعد إقامة قصيرة في ذمار توجه نحو صنعاء حتى وصل أمام أبوابها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الآخرة من السنة نفسها الموافق الأول من نوفمبر 1504م. وكان جيشه يتألف من تسعون ألف رجل من المشاة وثلاثة آلاف فارس. فحاول كل من الإمام محمد بن علي والأمير محمد ابن حسين الجوفي والإمام الوشلي نجدة صنعاء لكنهم هزموا جميعهم. وفي يوم الأحد الثالث من شوال 912هـ الموافق 10 مارس 1505م أجبر الإمام أحمد ابن ناصر على الاستسلام. فقسم السلطان عامر ابن الملك المنصور الإمام الوشلي وكل الوجهاء الذين قد أسرههم واقتدى كل أعيان المدينة. فخضعت له كل الأماكن المحصنة في إقليم صنعاء وبدون مقاومة - (المترجم).

(40) يقصد بها إيطاليا أو البرتغال - (المترجم).

(41) يقول تيسيه بأنه الإمام أحمد ابن الإمام المنصور.

فيها تجار في غاية الثراء ويرتدون ملابس كالذين ذكرناهم سابقاً، وبشرتهم ذات زيتوني. وقد غادرت تعز متجهاً إلى مدينة أخرى تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام وتدعى مدينة زبيد، وهي مدينة كبيرة وجميلة للغاية وتقع على بعد نصف يوم من البحر الأحمر. كما أنها مدينة تجارية يتم تمويلها عن طريق البحر الأحمر، ويوجد فيها كميات كبيرة من السكر وكميات ضخمة من الفواكه. وتقع مدينة زبيد في واد بين جبلين، وليست محاطة بالأسوار. تصل إلى المدينة كميات كبيرة من البهارات من كل نوع تجلب من مناطق وبلدان أخرى بعيدة. أما عن ملابس أهل زبيد وألوانها فلا تختلف عن ألبسة وألوان من سبق ذكرهم من أهل تعز وصنعاء.

وقد غادرت زبيد متجهاً إلى مدينة أخرى تبعد عنها مسيرة يوم وتسمى دمار Damar، ويقطنها المسلمون وهم تجار كبار. فأرضها خصبة، ولا يختلف السكان في عاداتهم وأسلوب حياتهم عن المذكورين آنفاً.

سلطان المدن المذكورة آنفاً، لماذا يلقب شيخ أمير Sequamir؟

كل المدن التي ذكرت آنفاً تابعة لسلطان اليمن⁽⁴²⁾ Amames أي بلاد العربية السعيدة الملقب بالشيخ الأمير Sechamir وكلمة شيخ Secho تعني ما تعنيه كلمة قديس Saint، أما كلمة أمير فتعني "حاكم"⁽⁴³⁾. وسبب إطلاق لقب "شيخ" عليه هو أنه لم يقتل أي شخص قط إلا أثناء الحرب. ويجب أن تعلم أن هذا السلطان كان يسجن - على أيامي - 15.000 أو 16.000 رجل كلهم مكبلون في الحديد، وينفق لكل واحد منهم يومياً مبلغ اثنين (كاترين)⁽⁴⁴⁾ quatrains أي أنه يتركهم السجن حتى يلاقوا حتفهم مع أنهم كانوا يستحقون عقوبة الإعدام. كما أنه يمتلك 16.000 عبد، جميعهم من سود وينفق عليهم جميعاً.

القرود بأنواعها وحيوانات أخرى مفترسة

لقد غادرت مدينة دمار واتجهت إلى مدينة عدن التي وصلتها بعد خمسة أيام، وفي منتصف الطريق وجدت جبلاً مربعاً، رأيت فيه أكثر من 10.000 قرد

(42) يجب أن نقرأ هذه الكلمة بـ Yémen (شيفر).

(43) يقول تبسيه أن الأمير الذي يصفه فارتيما بلقب الشيخ أمير هو الملك الظافر صلاح عامر الثاني (1489م -

1517م)، ابن الملك المنصور عبد الوهاب ملك عدن الذي أوردنا ذكره في ذكر مدينة عدن.

(44) عملة فرنسية قديمة.

بأنواع مختلفة، يوجد بينها بعض الحيوانات تشبه الأسود التي تهاجم البشر متى سنحت الفرصة. ولهذا السبب فإنه من غير الممكن للناس المرور عبر هذا الجبل إلا إذا كان عددهم لا يقل عن مائة شخص. لقد مررنا بهذا الطريق محذوفين بالخطر الكبير لأنهم كانوا يتبعوننا إلا أننا قتلنا عدد كبير من هذه الحيوانات بالسهام والرمح والكلاب حتى عبرنا بسلام. وعند وصولي إلى عدن مكثت في المسجد متظاهراً بأن المرض قد حل بي، وكنت أظل في المسجد طوال النهار وفي المساء كنت أخرج باحثاً عن ريان السفينة التي كانت متجهة إلى أثيوبيا لكي يأخذني على متنها سراً.

الجزء الرابع: بعض الأماكن في أثيوبيا

كون أننا قررنا أن نرى مناطق أخرى، فقد أبحرنا لنصل إلى مقصدنا، إلا أن الحظ الذي قد تعود أن يملئ إرادته المتقلبة على صفحات الماء غير بعض الشيء من خطتنا الأولى، لأنه بعد ستة أيام أبحرنا في طريقنا إلى بلاد فارس، وبعد سبعة أيام أخرى حدثت عاصفة دفعتنا حتى أثيوبيا ومعنا خمس وعشرون سفينة محملة بنبات الفوة Madder⁽⁴⁵⁾ لصبغ الملابس. ففي كل عام يتم تحميل ما يصل إلى خمس وعشرين سفينة بهذا النبات من ميناء عدن. وينمو نبات الفوة هذا في جنوب الجزيرة العربية. وبجهد فائق دخلنا ميناء زيلع Zeila وبقينا فيه خمسة أيام لرؤيته، وكذلك لانتظار المناخ الملائم للإبحار.

زيلع المدينة الأفريقية ورخاؤها وبعض الحيوانات بها كالأغنام والأبقار

زيلع⁽⁴⁶⁾ ميناء يعج بالنشاط التجاري خاصة بالذهب وأسنان الفيلة وبيع هنا أيضاً عدد كبير من العبيد، وهم مسيحيون من أتباع القديس جون (يوحنا) كان المسلمون قد أسروهم في الحروب، ويشحن هؤلاء العبيد من هنا إلى فارس وجنوب الجزيرة العربية ومكة والقاهرة والهند. ويتمتع الناس في زيلع بمعيشة

(45) نوع من النبات يسمى بالعربية فوه وكان هذا النبات يصدر عن طريق ميناء عدن وموانئ اليمن الأخرى ويستخدم لصبغ الملابس.

(46) زيلع التي عرفها الرحالة Le Blanc Vincent باعتبارها مدينة موندوس Moondus القديمة، وتقع في شمال شرق قارة أفريقيا في مواجهة خليج عدن، وعلى بعد حوالي ستين ميلاً من مضيق باب المندب، وقد استطرد الكثير من المؤرخين والرحالة كالإدريسي وأبو الفداء وابن بطوطة وجون دو لاروك وباحثين آخرين لتحديد موقع زيلع (المترجم).

رغدة، وأمور القضاء تجري على نحو ممتاز. وتنمو الغلال بوفرة هنا وكذلك أعلاف الحيوانات ويوجد هنا زيت بكميات كبيرة، وهم لا يستخلصونه من الزيتون وإنما من سمسم، كما يتوفر هنا عسل النحل والشمع بكميات كبيرة. ويوجد هنا نوع من الخرفان، سبلة الواحد منهم تزن خمسة عشر أو ستة عشر رطلاً، ورؤوس هذه الخراف ورقابها سوداء تماماً، بينما بقية أبدانها بيضاء. وتوجد بعض الخراف الأخرى لها سبلات بطول ذراع، وهي مجدولة كجذوع أشجار العنب. ولكل خروف من هذه الخرفان بُند⁽⁴⁷⁾ يشبه بُند الثور، وكثيراً ما يلمس الأرض. وقد وجدت في زيلع نوعاً آخر من الأبقار لها قرون كقرون الأيائل وهي متوحشة⁽⁴⁸⁾ وقد رأيت هنا أيضاً أبقاراً أخرى طواحدة منها قرن وحيد في جبهتها، يبلغ طوله بثلو ونصف بالمو⁽⁴⁹⁾ palmo، ويتجه إلى ظهر البقرة، أكثر من اتجاهه نحو الجبهة ولون هذا النوع من الأبقار أحمر بينما الأبقار التي ذكرناها قبل ذلك ذات لون أسود. والمؤن متوفرة بكثرة في زيلع، والتجار هنا كثيرون. ولزيلع سور ضعيف، وميناء سيئ، ومع ذلك فهو يقع على مستوى البحر، وحاجكم زيلع مسلم ولديه عدد كبير من الجند المشاة والفرسان. وسكان زيلع هو شعب مقاتل ويلبس أفرادهم القمصان والوانهم كألوان الزيتون ولا يسيرون إلا مسلحين بطريقة غير جيدة، وهم جميعاً من المسلمين.

بربرا إحدى الجزر الأفريقية، وشيها

بمجرد أن أصبح المناخ ملائماً، أبحرنا ووصلنا إلى جزيرة بربرا Barbara وحاجكمها وكل سكانها من المسلمين⁽⁵⁰⁾، وهي جزيرة صغيرة إلا أنها طيبة وعامرة بالسكان، وبها حيوانات من مختلف الأنواع، والسكان في غالبهم سود وغالب ثروتهم من الحيوانات، وقد مكثنا هنا يوماً واحداً، ثم اتخذنا سبيلنا إلى بلاد فارس.

(47) البُند هي لحمة توجد بين الحنك وصفحة العنق.

(48) ربما كان فارتيمّا يقصد المهاة والجمع مهوات (oryx) رغم أنه تدّ وصفاً للقرون يشبه وصف قرن الظبي والجمع الظباء - (المترجم).

(49) البالمو palmo هو مقياس إيطالي للمسافة يساوي تقريباً 24,77 سم - (المترجم).

(50) إن المقصود بلا شك هي بربرا، إلا أن بربرا ليست جزيرة كما ذكر فارتيمّا، فهذا الاسم يطلق بشكل عام على خليج صغير عميق وضيق يشكل ميناء في موسم الرياح الموسمية الشمالية الشرقية للمناطق المجاورة له. ويقع على بعد حوالي 120 ميلاً إلى الجنوب الشرقي من زيلع.

الجزء الخامس: الرحلة الرابعة

بلاد فارس وبعض سواحل الخليج العربي: ديم بنابر الروم وجوجو وجلفار وأرض مسقط

هرمز وكنهه يمينيون اللآلئ الضخام جداً

وقد تابعنا رحلتنا فغادرنا مسقط⁽⁵¹⁾، وذهبنا إلى مدينة هرمز العظيمة، وهي في غاية من الجمال. هي عبارة عن جزيرة كبيرة، ومركز ملاحى وتجارى تبعد عن البر ما يقرب من عشرة أو اثنى عشر ميلاً. ولا يوجد في هذه الجزيرة ما حلو أو طعام كاف، وإنما يأتيها كل ذلك من البر.

بالقرب منها وعلى بعد ثلاثة أيام، يصطادون أضخم الآلئ في العالم، وبالطريقة التي سأرويها لكم كما يلي. هناك صيادون يمتلكون قوارب صغيرة، فيقذف الواحد منهم بحجرين كبيرين مريوطين بحبال سمكية، واحد -أي حجر- من الطرف الخلفي للقارب، والأخرى من الطرف الأمامي له لكي ليبقى ثابتاً. وبالطريقة نفسها يقذفون بحبل آخر، معلق به حجر كبير أيضاً إلى قاع الخليج، وفي وسط القارب يقبل أحد صيادي اللآلئ فيعلق حقيبتين حول عنقه ويربط إلى قدميه حجراً ثقيلاً ثم يغطس في البحر بعمق خمسة عشر خطوة ويبقى تحت الماء أطول فترة ممكنة ليجمع الأصداف الحاوية على اللآلئ ويضعها في الحقيبة المعلقة حول عنقه، ثم يتخلص من الحجر المربوط في قدميه ويصعد على سطح الماء مع حقيبتيه مستخدماً الحبال التي ذكرناها آنفاً. وفي بعض الأحيان تتجمع في هذه المدينة أكثر من ثلاثمائة سفينة، تابعة لبلدان ومناطق مختلفة في هذه الجزيرة التي يسكنها المسلمون⁽⁵²⁾.

سلطان هرمز، وقسوة الابن على أبيه وأمه وأخوته

في الوقت الذي زرت فيه بند هرمز كان لسلطان هرمز⁽⁵³⁾ أحد عشر ابناً من الذكور. كان أصغرهم بسيطاً ويُنظر إليه على أنه نصف مجنون، أما البكر فكان يُنظر إليه كشيطان طليق. وكان هذا السلطان قد ربي عبيدين، من أبناء

(51) لم يذكر فارتيتما تفاصيل عن رحلته إلى مسقط و الفترة التي قضاها فيها.

(52) الجزيرة التي يجمع فيها صيادون اللؤلؤ تحمل اسم "أوال" وعاصمتها البحرين. وقد ذكر الجغرافي الإدريسي بإيجاز الطريقة التي يتبعها الصيادون لصيادة اللؤلؤ في هذا الشاطئ.

(53) كان حينها أبو الفتح مظفر الدين سلغور شاه Abû'l-Fath Muzaffaruddin Salghur Shah.

مسيحيين من رعايا القديس يوحنا Le Prêtre Jean⁽⁵⁴⁾، كان قد اشتراهما صغيرين جداً وأحبهما كأولاده. وكان هذان العبدان فارسين ماهرين وكانا مشرفين على القلاع. وذات ليلة قام الابن الأكبر بفقء عيني أبيه السلطان وعيني أمه وعيون أخوته جميعاً، فيما عدا أخيه الأصغر والذي كانوا يعاملوه كنصف مجنون، وحمل جميع إخوته الذي فقئ عيونهم إلى غرفة أبيه وأمّه، وأشعل النار في الغرفة بما فيها ومن فيها. وفي الصباح الباكر شاع الخبر في أرجاء المدينة التي ثارت حينها. فتحصن في القصر، وأعلن نفسه سلطاناً، أما أخوه الأصغر الذي كان الناس يعتبرونه غيباً فلم يبد من الغباء والبله ما كان يعرف به، ذلك لأنه عندما علم بما حدث التجأ إلى المسجد وصرخ قائلاً: "يا إلهي.. إن أخي شيطان شرير، لقد قتل أبي وأمي وأخوتي جميعاً، وأحرق جثثهم بعد قتلهم". وبعد مضي خمسة عشر يوماً عاد السكون للمدينة، فأرسل السلطان في طلب أحد العبدتين اللذين أشرنا إليهما آنفاً، وقال له:

- "تعال أنت يا محمد!"

❖ فأجاب العبد محمد: "أيش قلت يا سيدي؟" أي ماذا تطلب يا سيدي.

- فقال السلطان: "أنا السلطان، أليس كذلك؟"

❖ فأجاب محمد: "أيه والله، سيدي، أنت السلطان!"

- فأخذ السلطان بيده وأكرمه ثم قال له: "روح أقتل صاحبك وأنا أعطيك أربع قلاع أو خمس".

- فأجاب محمد: "يا سيدي أنا أكلت معه من صباي... ثلاثين سنة ونحن معاً، والله يا سيدي أنا قاصر"

❖ فرد عليه السلطان: "إذن لا تقل شيئاً".

(54) هناك فرضيات كثيرة حول حقيقة وجود القديس يوحنا أو الملك يوحنا. تقول الكثير من المراجع بأنها شخصية خرافية، ويقول البعض بأنها شخصية حقيقية كان ملكاً مسيحياً في الشرق، وهناك عدة آراء حول تحديد موقع مملكته، فالبعض يقول بأنها كانت تمتد من الصين إلى منغوليا ويرجح البعض بأنه كان ملكاً على بلاد الحبشة. وأصحاب هذا الرأي الأخير حددوا فترة حكم هذا الملك في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بينما كانت رحلة فارتيما إلى الشرق في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وهذا ما يشكك من صحة معلومات إحداهما، أي إما فارتيما أو الآراء الأخرى حول هذه الشخصية. وقد تكون هذه الشخصية خرافية فعلاً وأن الرحالة قد قرأ عنها وأراد أن يدعم فرضية وجودها ليثبت حقيقة قصة رحلته.

وبعد هذا الحوار بثلاثة أيام⁽⁵⁵⁾، أرسل السلطان إلى العبد الآخر، وكان يسمى قيم⁽⁵⁶⁾ Caim وطلب منه نفس الشيء الذي طلبه من الأول، فقال قيم "بسم الله الرحمن الرحيم، يا سيدي". ثم حمل سلاحه سراً واتخذ طريقه فوراً يبحث عن صديقه محمد. وعندما رآه محمد أخذ ينظر في وجهه متفرساً وقال له: "يا خائن العهد والأمانة، لا يمكنك إنكار ما تريد فعله لأنني أراه في وجهك، لكن انتظر سأقتلك قبل أن تقتلني".

ولما رأى قيم Caim أن أمره قد كشف وسره قد عُرف، سحب خنجره وألقاه عند قدمي محمد، وركع على قدميه وهو يقول:

- صديقي/سامحني! إذا كنت ترى بأني أستحق الموت خذ السلاح واقتلني لأنني ما أتيت إلا لقتلك.

❖ فأجابه محمد: "ربما وصفي لك بأنك خائن كان صحيحاً، لأننا نعيش معاً منذ ثلاثين عام، نأكل ونشرب معاً ثم تأتي بعد كل هذا لتقتلني بهذه الطريقة الجبانة. يا صديقي المسكين، ألا ترى أن هذا الرجل (السلطان) ما هو إلا شيطان؟ انهض، بالنسبة إليك فقد عفوت عنك. فلتعلم أنه - أي السلطان - قد حرصني قبل ثلاثة أيام لقتلك، لكنني ما كنت لأقبل. والآن دع الأمر كله لله! لكن افعل ما سأقوله لك. اذهب إلى السلطان وأخبره أنك قتلتني".

فرد عليه قيم Caim بالإيجاب ثم ذهب على الحال إلى السلطان،⁽⁵⁷⁾ وعندما رآه السلطان سأله عما إذا كان قد قتله. فأجاب قيم Caim: "نعم والله يا سيدي".

فناداه السلطان ليقرب منه وقال له: "تعال هنا!"

فاقترب قيم Caim من السلطان، وعندئذ طعنه السلطان عدة طعنات بالخنجر في صدره حتى أرداه قتيلاً. وبعد ذلك بثلاثة أيام تسلم محمد سراً وذهب إلى غرفة السلطان، وعندما رآه السلطان اضطرب قائلاً:

"آه يا كلب، يا ابن الكلب، ما زلت حياً؟!"

❖ فأجابه محمد: "ما زلت حي رغم أنفك، وسأقتلك، لأنك أسوأ من الكلب أو الشيطان".

(55) بعض الترجمات الفرنسية تقول بأنها أربعة أيام - (المترجم).

(56) ورد هذا الاسم في بعض الترجمات بالشكل التالي Chaim.

57 - هذه الجملة لم ترد في نسخة تيسيه (Teyssier).

فأشهرها كل منهم سلاحه واقتتلا لفترة طويلة، وفي النهاية قتل محمد السلطان ثم تحصن بعد ذلك في القصر. وبما أنه كان محبوب من قبل سكان هذه المدينة، راح الناس يتهافتون جميعهم إلى القصر وهم يهتفون "يعيش محمد السلطان". واستمر محمد سلطاناً لمدة عشرين يوماً، وبعد ذلك أرسل في طلب كل أعيان وتجار المدينة وتحدث إليهم بهذه الكلمات الحكيمة: "أيها السادة! اعلّموا أن ما فعلته لم أكن لأفعله إلا مرغماً، ولأنني أعرف أنه لا حق لي في السلطنة لذا فإنني أرجو كل الناس أن يوافقوني الرأي على تنصيب سلطاناً الابن الأصغر للسلطان، والذي كان يعتبره الناس مجنوناً". وهكذا أصبح سلطاناً - أي الابن الأصغر للسلطان. لكن في حقيقة الأمر كان محمد هو الحاكم الحقيقي. وكان أهل المدينة يقولون "حقيقة أن محمد محبوب من الله"⁽⁵⁸⁾. ولهذا فإن محمد كان يحكم المدينة ومسئول عن السلطان معاً لأن السلطان كان يعيش الحالة التي سبق ذكرها⁽⁵⁹⁾، إذ أن هذا السلطان لم يكن له أي قيمة تذكر. وعرفت أنه يوجد في هذه المدينة أربعمئة تاجر أجنبي يتاجرون بالحرير واللؤلؤ والجواهر والبهار. وفي هذه المدينة يأكل الناس الأرز أكثر من الخبز لأن القمح لا ينمو في هذه البلاد

(58) إي يحبه الله.

(59) إي أنه ما زال نصف مجنون. وهذه الجملة لم ترد في ترجمة شيفر بل وردت في ترجمة تيسيه الذي ذيلها بجملة فحواها أن هذه الرواية قد أكدها جان أوبان Jean Aubin (كاتب التمهيد Préface) بعد إطلاعه على وثائق أخرى وأن الاغتيال وقع في عام 1505م. وقد ختمها بأن أرجع القارئ إلى المرجع التالي « Cojeatar et Albuquerque » in Le latin et l'astrolabe, 2, p. 149 sqq.